رسالة الطالب العربى

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك

المستشار الفنى ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

قصدت حين اخترت "رسالة الطالب العربى" موضوعا للحديث أن أتحرر مما يقتضيه البحث من جهد وعمق فلا يرتفع بحثى الى مرتبة المحاضرة وما تتطلبه من تقدمة وتفصيل وتحليل، وأن يكون سبيلى حديثا مرسلا له صفة الحديث، وهى أنه ذو شجون. فأطالع المستمع بما يعرض للذهن من خواطر وذكريات يطمئن لها خيالى وشعورى حين يجرى حديث العرب. وهأنذا فى مكانى هذا أذكر مواقف ماثلة أمامى على الرغم من بعد الشقة وتتابع الأحداث. ففى صيف سنة ١٩٣٧ وقفت على رابية من ربى لبنان الجميل أخطب كثافة العرب لبنانيين وعراقيين وشاميين وفلسطينيين فكنت أبصر بعينى بعض البقاع العربية وأستجمع بخيالى نائى الأقطار والديار فلا ألمح حدودا بين بعضها وبعض إن هى إلا أمة واحدة فى رقعة من الأرض واحدة يؤلف بين أجزائها ماض واحد وحاضر مشترك ومستقبل منشود يحفز شبابها المتوثب أمل قوى فى تجديد الحضارة العربية وبعث المجد الذى حفلت به صحائف التاريخ. وكذلك لا أنسى أنى وقفت أخطب شباب العراق وأتحدث فى مذياع بغداد فجعلت أسائل نفسى: أفى بغداد أنا أم فى القاهرة، وعلى ضفاف دجلة أو على شاطئ النيل السعيد، أو غريب أنا فى هذه الديار أم أنعم بين عشيرتى وأهلى! والآن أتحدث لجمع يضم شباب العرب من أقطار شتى فى ظلال الجامعة المصرية فلا أجد فى نفسى شعور الغريب يتحدث الى الغريب وإنما أشعر حق الشعور بأنى أتحدث الى طائفة من بنى قومى ليس بيننا وبينهم من الفوارق غير نأى الدار وشط المزار، توثق بيننا أمتن الروابط الثقافية والروحية، ويهدينا الى المستقبل قبس تلك الحضارة العتيدة التى انتظمتنا جميعا فى الماضى فجعلت منا أمة موحدة فى عقيدتها وأهدافها من المثل العليا.

إن رسالة الطالب العربى هى رسالة الجيل. وهى رسالة المستقبل القريب، فهذه الجماعة التى تألفت من الطلاب العرب فى كلية الآداب لترسم الطريق لتحقيق الرسالة عليها أن تبدأ بتهيئة نفسها لخوض غمارها وتستوفى من ألوان الإعداد ما يكفل لها النجاح فى مهمتها. فأول ما يجب أن يفكر فيه الطالب العربى هو إعداد نفسه وتكوين ذاته. وأرباب الرسالات لا يلون مهمتهم ارتجالا ولا يرقبونها عفوا وإنما يحققون فى أنفسهم قدرة الاضطلاع بالأعباء. ومما لاريب فيه أن الإعداد الصحيح للطالب العربى يجب أن يتناول

الجسم والخلق والثقافة . وهؤلاء فريق من طلاب العرب قدموا مصر ليغترفوا من جامعتها ثقافة وعلما . ومصر حين تقوم نحوهم بواجبها وتفسح لهم صدرها إنما تؤدى اليهم دينا فى عنقها فإن علماءهم وأدباءهم دانوها فى مفتتح نهضتها وفى ماضى حضارتها وقد بايعت الأمم العربية اليوم مصر بالزعامة فى الأدب والثقافة والاجتماع والسياسة فمن واجب مصر الزعيمة أن تعرف لهذه الزعامة حقها وأن تنهض بتكليفها وأن تخص الطلاب العرب برعايتها ورغدها .

ولعل مما يحسن أن يتوجه اليه الطالب العربى فى الأخذ بأسباب رسالته أن تكون ثقافته كاملة فنحن بنو زمان هيمن فيه العلم على الأدب والقانون وعلى الطب والهندسة ومرافق الحياة كلها فى السلم والحرب . فالإعداد العلمى ضرورى لمغالبة هذه الحياة. ولن يصلح الآن أن يستقبل المرء حياته معتمدا على التجربة أو متكلا على الحفظ. فذلك إن أجدى عرضا على فرد فلا يجدى على أمة، وإن صلح فى عصر فلا يصلح لهذا العصر الذى يهيمن العلم على كل مرافقه وأوضاعه .

وعلى الطالب العربى وهو يستكمل ثقافته أن يضع ماضى العروبة نصب عينيه . فان كان خيرا ترسمه أجمع، وإن كان الخير فيه مخلوطا بالشر نفى عنه شره واستبق الخير، وإن كان قد غلب الشر فى حقبة من الزمن وجب اختطاط خطة تقوم على الخير الغالب، وإن وراء العرب لماضيا حافلا بالمفاخر وحضارة امتدت الى ما وراء العمران، وكان سبيل الأولين من أسلافنا أن ينتفعوا بما يستطيعون الانتفاع به من علوم الأمم وفلسفاتها ونظم الحياة فيها فاتخذوا من مختلف الأخلاط مزاجا جديدا له روعته وبقى هذا المزاج حتى صار أساسا لحضارة الغرب الحديثة فردّه الغرب الينا غريبا علينا . فمن واجب الطالب العربى ألا ينسى ماضيه لأنه حلقة الاتصال بالحاضر والامتداد الى المستقبل، واذا أهملنا هذا الماضى فقد أهملنا مجدا عظيما تتقطع بنا الأسباب دونه ، ونفقد مالنا من طابع وروح . كيف نزهد فى ماض ينطوى على المثل العالية فى التفدية والجهاد ويصور لنا عظمة فى الخلق وقوة فى العقيدة دانت بها ممالك الدنيا جمعاء ؟ فلنتبين سر هذا الماضى ، ولنتعرف كنه هذه الحضارة ولنتدبر الأسباب التى نقضت هذا الحكم وهدّمت ذلك البناء، وليكن ذلك التدبر وسيلة الى العظة والاعتبار ، فنأخذ من الذرائع ما يكفل النهوض ونتجنب من العلل ما طوى للعظمة العربية علمها الخفاق .

فإذا عرف الطالب العربى ماضى الأمة العربية بأمجادها ومفاخرها ووضحت له أسباب تدهورها وخمود جذوتها وكان قبل ذلك آخذا من المعرفة بالقسط الأوفى بدأ يدرس الحاضر وأدواءه، فالطبيب لا يجدى علاجه إذا لم يكن تشخيصه للمرض صحيحا وان تفيد العقاقير مهما تكن قيمتها شيئا ؛ وإن كثيرا من المصلحين لتذهب جهودهم هباء على الرغم من قوة

عزيمتهم وحسن بلائهم لأنهم لم يفقهوا البيئة التى حاولوا إصلاحها ولم يتلمسوا العوامل المؤثرة فيها ولم يتعلموا كيف توجه الشعوب وكيف تواجه العلل .

فليكن هم الطالب العربى أن يدرس العلل الخلقية والاقتصادية التى أثرت فى البلاد العربية فردتها عن الصدر ، وقد تكون هذه العلل واحدة تشترك فى معاناتها سائر أقطار العرب وقد تكون لكل قطر علته الخاصة به . فعلى كل طالب أن يتفهم العلل التى ينفرد بها وطنه الأصغر ، ثم يتفهم العلل المشتركة التى تصيب وطنه الأكبر . وإن كانت هناك فرقة استجلى أسبابها ودواعيها ، وإن كان هناك جهل أو ضعف خلق تفحص مصادره وبواعثه ، وإن وجد تخلفا فى ميدان الصناعة أو التجارة استهدى إلى بواطن هذا التخلف ومتى فرغ من هذا الدرس والفحص أمكن له أن يرسم منهاج سيما لنهضة علمية خلقية عملية على أساس قويم .

وجدير بكل طالب عربى أن يتمثل له الوطن الأصغر والوطن الأكبر ، فوطنه الأصغر شبيه بالأسرة تضم ما لها من أبناء ، ووطنه الأكبر شبيه بالأمة تحتوى سائر الأسر . وإنى لأتصور الأمم العربية كلها أسرة كبيرة واحدة ، فيها أب واحد وأم واحدة ، فشاء ذلك الأب أن يوفر لبنيه الكثيرين أسباب الاستقلال والنماء ففرقهم فى منازل شتى يعنى كل منهم بشأنه ولكن تبقى بينهم أواصر القربى تجمعهم تحت لواء واحد وتؤلف بينهم عند الأحداث فإذا هم صف كأنه البنيان المرصوص . والحق أن من يزور الأقطار الشقيقة يحس هذا الشعور وهو يجتاز بلدا إلى بلد ويتنقل بين أهل وأهل فلا حدود ولا فوارق وإنما هو وطن بعيد الأطراف وحدت بين أجزائه المترامية روابط الدين واللغة والثقافة ، وألفت بين قلوب أبنائه آمال متشابهة وأهداف مشتركة .

ولا أظن أن ثمة رابطة أقوى من الرابطة الثقافية فى وصل الشعوب بعضها ببعض . فالأمم العربية بخير ما توثقت روابط الثقافة بين شباب العرب ، لأنها توحد بين الأفكار وتجمع بين القلوب ويتسنى بها لكل رابطة سياسية أو اقتصادية أن تجد طريقها إلى القبول . ولا يستطيع أحد أن يتصور أمما تتفرق بعد أن يتم التوحد بين قلوبها وأفكارها وأمانيها جميعا

ومما نوصى به الطالب العربى أن يؤمن إيمانا عميقا بأن اللغة الفصحى هى أس الاتصال بين الأمم العربية ، وأنه يجب أن يقوم على دعائمها صرح الثقافة العامة ، فلقد طوفت فى الشام والعراق وغيرهما مما كان يتيسر لى تقارب الفهم والإفصاح عن مكنونات النفس إلا حين اخترت الفصحى أسلوبا لحديثى . فإذا تدسست اللهجات أفسدت ما بينى وبين محدثى من تعارف وأسلمتنا إلى التناكر البغيض . فالفصحى هى التى تجمع شملنا ، وهى التى تقارب تفكيرنا

فليكن من مهمتنا نحن الدعاة الى الوحدة العربية أن نحرص على الفصحى وأن ندانى بين الأساليب فى شتى الأقطار، وأن نعمل على تيسير هذه اللغة لكى يسهل لنا استخدامها فى الثقافة المشتركة بين الناطقين بالضاد .

ولقد أشرت فى مطلع حديثى الى ضرورة إحيائنا لماضينا ، وقد يقال إن لكل أمة من الأمم العربية ماضيا خاصا . والواقع أن هذا الماضى مشترك بين أمم العرب لأنها كانت تخضع فى حقيقة الأمر لنظام واحد وتستمد حضارتها وأنماط حياتها وتفكيرها من منبع واحد فى الأكثر الغالب ، فمن أركان رسالة الطالب العربى إحياء ماضى العروبة فى التفكير وعرض هذا التراث الفكرى العظيم فى إطار جديد . فذلك الماضى يستند إلى دين محكم وضع نظامه ليواجه مشكلات الحياة فى كل عصر وكل بيئة، ولكن لابد لنا من أن نتفهم روح الدين السامية على وجهها الصحيح خالصة من البدع محررة من الجمود . فلو استمسكنا بذلك النظام الذى وضع أساسه ديننا القويم لاستطعنا الخروج سالمين من نوائب الزمن التى يرجع مصابنا بها الى تنكبنا ذلك الطريق المستقيم . على أن لنا مع ذلك ماضيا تاريخيا يجمل بنا أن نحييه فى أنفسنا معتزين به ليكون حافزا لنا على التوثب والرقى. ولنا كذلك تراث أدبى وعلمى عنى به علماء الغرب قبلنا وكان له أثره فى اتساع آفاق تفكيرهم الفلسفى والاجتماعى . فيجب أن يكون لنا فى هذا التراث مأرب عظيم، وأن نعمل على تجديده وتنظيمه بما يلائم تطور الفكر الإنسانى وأن نقرب موارده للدارسين والباحثين وطالبى المعرفة . فقد طالما طالعتنا الحقائق بأن كثيرا من نظريات آبائنا السالفين فى نواحى العلم يؤيدها الفكر الحديث ويحتفل بها العلماء المعاصرون .

غير أننا مع احتفائنا بذلك التراث العظيم ودعوتنا إلى إحيائه والانتفاع به لا يجوز أن نتعصب له ونطرح ماعداه فنقول إن ثقافتنا كل شىء فى الحياة وأننا نستغنى بها عما سواها بل نعمل كما عمل أجدادنا العرب ونستنهج طريقهم فى اكتساب المعرفة، فلقد نشدوا العلم من شتى مصادره وفرضوه على كل مسلم ومسلمة وقربوا اليهم العلماء دون تفرقة بين أصيل ودخيل، فانعقد لهم لواء الحضارة فى بخر نهضتهم وسخروه لدولتهم وصولتهم فانتزود من العلم الصحيح حيث يكون ، فالعلم لاحكرة فيه لأحد ولا وطن له ولا دين .

وانه لمن تباشير الخير فى الشرق أن يفد أبناءه ليتلقوا العلم من جامعة مصر ، ومن تباشير الخير فى مصر أن تفتح جامعتها الأبواب لكل وافد عربى . ولقد كنت أتحدث إلى بعض أولى الأمر فى البلاد الشرقية أثناء جولاتى فقلت له فى سياق الحديث : لم تنشئ كل من سورية والعراق وفلسطين جامعة ؟ وليس انشاء الجامعات بالأمر الهين ولا يقصد به مجرد المظهر ، فقليلا ما يتوافر العلماء . وقليلا ما يتيسر المال اللازم للإنشاء . ولم لا تكون الثقافة الجامعية

فى الشرق موحدة ، فتكون جامعة فؤاد الأول فى مصر جامعة الشرق كله يفد اليها الطلاب العرب فيتزودون زاد إخوانهم طلاب مصر العرب ؟

* * *

إنى كلما أفضت فى حديث مشكلة اجتماعية يتملكنى عاملان : عامل يأس وعامل رجاء ، وهذا هو شعورى بعد أن ألمت برسالة الطالب العربى فيحضرنى عامل الرجاء حين أرى طائفة من شباب العرب فيها مخايل الرجولة الكاملة تفكر فى العرب وثقافة العرب ومستقبل العرب ، وتكون من أنفسها جماعة تدعو الى رسالتها وتنظم المحاضرات فى موضوعاتها فهنا يقوى الرجاء ويبتسم المستقبل . ويحضرنى عامل اليأس حين أتفرس فى الحياة الاجتماعية التى يحيا العرب فى أكنافها ، فأرى فى بعض ما أرى نوعا من الانقسام ، وألاحظ بلبلة فى الرأى ، وتباعدا عن فكرة الوطن الأكبر واشتغالا بتوافه الأمور عن جلائلها ، وهنا يلاحقنى التردد فى الاطمئنان إلى الأمل والرجاء . ولكن إذا كانت عوامل اليأس مما تجوز لمن هم على عتبة الشيخوخة أمثالى ، فإن الشباب يجب أن يمتلئوا أملا وطموحا وثقة بالغد المنتظر ، وأن يكونوا رسل إيمان ويقين فى المستقبل المنشود فانهم بهذا الروح تلين لهم الصعاب وتتفتح لهم أبواب الجهاد لتأدية رسالتهم العظمى ، رسالة الانهاض للشعب العربى وردّه إلى مكانه فى الصدر الأول وإسلامه إلى مستقبل ميمون الطلعة مبارك النفع إن شاء الله .

محمد العشماوى

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

"حديث شريف"